رحمتُه صلى اللهُ عليه وسلم بِأُمَّتِهِ

الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ، والصلاةُ والسلامُ على خاتمِ النبيينَ وسيدِ الأولينَ والآخرينَ؛ سيدِنا وقدوتِنا محمدٍ بنِ عبدِ اللهِ، وآلِهِ وصحبِه أجمعينَ، وبعد:

قالَ أنسٌ – رضيَ اللهُ عنه –: ((كَانَ رَسُولُ اللَّهِ – صلى اللهُ عليه وسلم – يُصَلِّي فِي رَمَضَانَ، فَجِئْتُ فَقُمْتُ إِلَى جَنْبِهِ، وَجَاءَ رَجُلٌ آخَرُ فَقَامَ أَيْضًا حَتَّى كُنَّا رَهْطًا، فَلَمَّا حَسَّ النَّبِيُّ – صلى اللهُ عليه وسلم – أَنَّا خَلْفَهُ جَعَلَ يَتَجَوَّزُ فِي الصَّلاَةِ، ثُمَّ دَخَلَ رَحْلَهُ فَصَلَّى صَلاَةً لاَ يُصَلِّيهَا عِنْدَنَا، قَالَ: قُلْنَا لَهُ حِينَ أَصْبَحْنَا: أَفَطِنْتَ لَنَا اللَّيْلَةَ، فَقَالَ: **نَعَمْ، ذَاكَ الَّذِي حَمَلَنِي عَلَى الَّذِي صَنَعْتُ**))[1].

وهذا جليٌّ في سيرتِه – صلى اللهُ عليه وسلم –؛ إذ ما بعثَه اللهُ تعالى إلَّا رحمةً للناسِ؛ كما قالَ تعالى: **{وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ}** [الأنبياء: ١٠٧]، وَقَالَ – صلى اللهُ عليه وسلم –: ((**إِنَّمَا بُعِثْتُ رحمةً**))[2]، فَعَمَّتْ رَحْمَتُهُ، وَاتسعَتْ شَفَقَتُهُ.

وَصَفَهُ اللهُ – سبحانه وتعالى – بالرحمةِ؛ فقالَ سبحانه : **{فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ}** [آل عمران: ١٥٩].

{لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ} [التوبة: ١٢٨].

جاءَ أعرابيٌّ – كما تروي عائشةُ رضيَ اللهُ عنها – إلى النبيِّ – صلى اللهُ عليه وسلم – فرأى أمراً لَمْ يَعْهَدْه، رآه يُقَبِّلُ الصبيانَ، فَقَالَ: ((تُقَبِّلُونَ الصِّبْيَانَ؟ قالَ – صلى اللهُ عليه وسلم –: **نعم**، قالَ الأعرابي: إنَّا لا نُقَبِّلُهُمْ، فَقَالَ النَّبِيُّ – صلى اللهُ عليه وسلم –: **أَوَ أَمْلِكُ لَكَ أَنْ نَزَعَ اللهُ مِنْ قَلْبِكَ الرَّحْمَةَ**))[3].

ويصلي بأصحابِه فيسجدَ، فيأتي الحسنُ أو الحسينُ فيرقى على ظهرِه، فيُطِيلُ السجودَ حتى ظنُّوا أنَّه نسيَ، فلمَّا فرغَ منْ صلاتِه قالَ: ((**إِنَّ ابني هذا ارتحلَني، فكرهتُ أنْ أقومَ قبلَ أنْ يقضيَ حاجتَه**))[4].

ومنْ رحمتِهِ – صلى اللهُ عليه وسلم – ما ذكرهُ أبو سعيد الخدري – رضيَ اللهُ عنه –، قالَ: ((أَتَى رَسُولُ اللَّهِ – صلى اللهُ عليه وسلم – عَلَى نَهَرٍ مِنَ السَّمَاءِ [أي منْ ماءِ المطرِ]، وَالنَّاسُ صِيَامٌ فِي

---

(١) رواه مسلم، (١١٠٤).

(٢) رواه مسلم، (٢٥٩٩).

(٣) متفق عليه، البخاري، (٥٩٩٨)، ومسلم (٥٦٥٢).

(٤) رواه أحمد في مسنده، (٢٧٦٨٨)، وإسناده صحيح.

يَوْمٍ صَائِفٍ [يومَ صيفٍ شديدَ الحرارةِ] مُشَاةً، وَنَبِيُّ اللَّهِ عَلَى بَعْلَةٍ لَهُ، فَقَالَ: **اشْرَبُوا أَيُّهَا النَّاسُ**، قَالَ: فَأَبَوْا، قَالَ: **إِنِّي لَسْتُ مِثْلَكُمْ إِنِّي أَيْسَرُكُمْ** [من اليَسَارِ، أي: أغنَاكُم عنْ الماءِ أوْ الإفطارِ] **إِنِّي رَاكِبٌ**، فَأَبَوْا، قَالَ: فَثَنَى رَسُولُ اللَّهِ – صلى اللهُ عليه وسلم – فَخِذَهُ فَنَزَلَ فَشَرِبَ وَشَرِبَ النَّاسُ، وَمَا كَانَ يُرِيدُ أَنْ يَشْرَبَ))[٥].

ومنْ رحمتِهِ – صلى اللهُ عليه وسلم – ما رَوَتْهُ عائشةُ – رضيَ اللهُ عنها –، قالتْ: ((نَهى رَسُولُ اللهِ – صلى اللهُ عليه وسلم – عَنِ الْوِصَالِ؛ رَحْمَةً لَهُمْ، فَقَالُوا: إِنَّكَ تُوَاصِلُ، قَالَ: **إِنِّي لَسْتُ كَهَيْئَتِكُمْ، إِنِّي يُطْعِمُنِي رَبِّي وَيَسْقِينِي**))[٦].

ومن رحمتِه – صلى اللهُ عليه وسلم – أنَّه تركَ الصلاةَ بأصحابِه – رضيَ اللهُ عنهم – جماعةً في قيامِ الليلِ خشيةً مِنْ أنْ تُفْرَضَ عليهمْ.

عنْ عائشةَ – رضيَ اللهُ عنها –: (أَنَّ رَسُولَ اللهِ – صلى اللهُ عليه وسلم – خَرَجَ ذَاتَ لَيْلَةٍ مِنْ جَوْفِ اللَّيْلِ فَصَلَّى فِي الْمَسْجِدِ، فَصَلَّى رِجَالٌ بِصَلاَتِهِ، فَأَصْبَحَ النَّاسُ فَتَحَدَّثُوا، فَاجْتَمَعَ أَكْثَرُ مِنْهُمْ فَصَلَّوْا مَعَهُ، فَأَصْبَحَ النَّاسُ فَتَحَدَّثُوا، فَكَثُرَ أَهْلُ الْمَسْجِدِ مِنَ اللَّيْلَةِ الثَّالِثَةِ، فَخَرَجَ رَسُولُ اللهِ – صلى اللهُ عليه وسلم – فَصَلَّوا بِصَلاَتِهِ.

فَلَمَّا كَانَتْ اللَّيْلَةَ الرَّابِعَةَ عَجَزَ الْمَسْجِدُ عَنْ أَهْلِهِ حَتَّى خَرَجَ لِصَلاَةِ الصُّبْحِ؛ فَلَمَّا قَضَى الْفَجْرَ أَقْبَلَ عَلَى النَّاسِ فَتَشَهَّدَ ثُمَّ قَالَ: **أَمَّا بَعْدُ؛ فَإِنَّهُ لَمْ يَخْفَ عَلَيَّ مَكَانُكُمْ، لَكِنِّي خَشِيتُ أَنْ تُفْرَضَ عَلَيْكُمْ فَتَعْجِزُوا عَنْهَا**، قَالَت: وَذَلِكَ فِي رَمَضَانَ))[٧].

وكثيرًا مَا كانَ يقولُ – صلى اللهُ عليه وسلم –: لولا أَنْ أشقَّ على أمتي لأمرتُهُم بكذا ...

فقالَ – صلى اللهُ عليه وسلم –: ((**لَوْلاَ أَنْ أَشُقَّ عَلَى أُمَّتِي أَوْ عَلَى النَّاسِ؛ لأَمَرْتُهُمْ بِالسِّوَاكِ مَعَ كُلِّ صَلاَةٍ**))[٨].

وقالَ – صلى اللهُ عليه وسلم –: ((**لَوْلاَ أَنْ أَشُقَّ عَلَى أُمَّتِي؛ لأَمَرْتُهُمْ أَنْ يُؤَخِّرُوا الْعِشَاءَ إِلى ثُلُثِ الليلِ أَوْ نِصْفِهِ**))[٩].

وقالَ – صلى اللهُ عليه وسلم –: ((**لَوْلاَ أَنْ أَشُقَّ عَلَى أُمَّتِي؛ لأَحْبَبْتُ أَنْ لاَ أَتَخَلَّفَ خَلْفَ سَرِيَّةٍ**))[١٠].

---

(٥) رواه أحمد في مسنده، (١١٤٤١)، وإسناده صحيح على شرط مسلم.

(٦) متفق عليه البخاري، (٧٢٩٩)، ومسلم (١١٠٣).

(٧) متفق عليه، البخاري، (٩٢٤)، ومسلم (٧٦١).

(٨) متفق عليه، البخاري، (٨٨٧)، ومسلم (٢٥٢).

(٩) رواه الترمذي، (١٦٧)، وصححه الألباني.

(١٠) رواه مسلم، (٤٩٧٣).

وقالَ – صلى اللهُ عليه وسلم –: ((لَوْلَا أَنْ أَشُقَّ عَلَى أُمَّتِي؛ لَأَمَرْتُهُمْ بِالسِّوَاكِ مَعَ كُلِّ وُضُوءٍ))[١١].

بلْ كانَ – صلى اللهُ عليه وسلم – في بعضِ الأحيانِ يُؤْثِرُ أمَّتَهُ على حظِّ نفسِه في العبادةِ التي يجدُ فيها قرةَ عينِه؛ فكثيرًا ما يتركُ العملَ الذي يحبُّ أنْ يعملَ بِهِ رحمةً بهم.

تقولُ عائشةُ – رضيَ اللهُ عنها –: (إِنْ كَانَ رَسُولُ اللهِ – صلى اللهُ عليه وسلم – لَيَدَعُ الْعَمَلَ وَهُوَ يُحِبُّ أَنْ يَعْمَلَ بِهِ؛ خَشْيَةَ أَنْ يَعْمَلَ بِهِ النَّاسُ فَيُفْرَضَ عَلَيْهِمْ)[١٢].

ويقولُ – صلى اللهُ عليه وسلم –: ((إِنِّي لَأَقُومُ إِلَى الصَّلَاةِ وَأَنَا أُرِيدُ أَنْ أُطَوِّلَ فِيهَا، فَأَسْمَعُ بُكَاءَ الصَّبِيِّ، فَأَتَجَوَّزُ كَرَاهِيَةَ أَنْ أَشُقَّ عَلَى أُمِّهِ))[١٣].

وقِيلَ له ذاتَ مرةٍ: ((يَا رَسُولَ اللَّهِ، ادْعُ عَلَى الْمُشْرِكِينَ، فقَالَ – صلى اللهُ عليه وسلم –: إِنِّي لَمْ أُبْعَثْ لَعَّانًا، وَإِنَّمَا بُعِثْتُ رَحْمَةً))[١٤].

ولم تقتصرْ رحمةُ النبيِّ – صلى اللهُ عليه وسلم – لِأُمَّتِهِ في الدنيا فقطْ، بلْ اتسعَتْ لتشمَلَهم في الآخرةِ، فيومَ يقولُ كلُّ نبيٍّ: نفسي نفسي! يقولُ النبيُّ – صلى اللهُ عليه وسلم –: ((يَارَبِّ، أُمَّتِي أُمَّتِي))[١٥]، فلا تقرُّ عينُه – صلى اللهُ عليه وسلم – حتى تدخلَ أُمَّتُهُ الجنةَ.

بلْ إنَّه آثرَ أُمَّتَه بدعوتِه المستجابةِ، التي خصَّ اللهُ بها كلَّ نبيٍّ؛ فادخرَها هو لأمتِهِ يومَ القيامةِ، حينَ تشتدُّ حاجتُها وَكربتُها!!

يقولُ – صلى اللهُ عليه وسلم –: ((لِكُلِّ نَبِيٍّ دَعْوَةٌ مُسْتَجَابَةٌ فَتَعَجَّلَ كُلُّ نَبِيٍّ دَعْوَتَهُ، وَإِنِّي اخْتَبَأْتُ دَعْوَتِي شَفَاعَةً لأُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَهِيَ نَائِلَةٌ إِنْ شَاءَ اللَّهُ مَنْ مَاتَ مِنْ أُمَّتِي لاَ يُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا))[١٦].

وهوَ – صلى اللهُ عليه وسلم – الذي سكبَ الدمعاتِ على أمتِه، لما تَلَا قولَ اللهِ – عزَّ وجلَّ – في إبراهيمَ: {رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} [إبراهيم: ٣٦]، وقولَ عيسى – عليه السلام –: {إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} [المائدة: ١١٨]، فرفعَ يَدَيْهِ وَقَالَ: ((اللَّهُمَّ أُمَّتِي أُمَّتِي)) وَبَكَى.

---

(١١) رواه أحمد في مسنده، (٩٩٢٨)، وإسناده صحيح على شرط الشيخين.

(١٢) متفق عليه، البخاري، (١١٢٨)، ومسلم (٧١٨).

(١٣) رواه البخاري، (٨٦٨).

(١٤) رواه مسلم، (٦٧٧٨).

(١٥) جزء من حديث الشفاعة الطويل؛ متفق عليه.

(١٦) رواه مسلم، (١١٩).

فَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ((يَا جِبْرِيلُ اذْهَبْ إِلَى مُحَمَّدٍ . وَرَبُّكَ أَعْلَمُ . فَسَلْهُ مَا يُبْكِيكَ؟ فَأَتَاهُ جِبْرِيلُ – عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ – فَسَأَلَهُ فَأَخْبَرَهُ رَسُولُ اللَّهِ – صلى اللهُ عليه وسلم – بِمَا قَالَ، وَهُوَ أَعْلَمُ، فَقَالَ اللَّهُ: يَا جِبْرِيلُ اذْهَبْ إِلَى مُحَمَّدٍ فَقُلْ: إِنَّا سَنُرْضِيكَ فِي أُمَّتِكَ وَلاَ نَسُوؤُكَ))[١٧].

ومن رحمتِه – صلى اللهُ عليه وسلم – بأمتِه أنه قامَ يدعو إلى اللهِ – عزَّ وجلَّ – بلا كللٍ ولا مللٍ، ولم يدخرْ في ذلك وسعًا؛ حتى كادَ يُهلِكَ نفسَه الشريفةَ – صلى اللهُ عليه وسلم – حزنًا على المشركين، لتركِهم الإيمانَ وبُعْدِهم عنه.

فقالَ له ربُّه: {فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا} [الكهف: ٦]، وقالَ له: {لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ} [الشعراء: ٣]، وقالَ له: {فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ} [فاطر: ٨].

وكأنه عتابٌ وإشفاقٌ على رسولِ اللهِ – صلى اللهُ عليه وسلم – لشدةِ ضيقِه وهمِّه بعدمِ إيمانِ قومِه، وهو يوقنُ بما ينتظرُهم بعدَ التكذيبِ، فتذوبُ نفسُه عليهم وَهُمْ أهلُه وعشيرتُه وقومُه، ويضيقُ صدرُه؛ فربُّه الرؤوفُ الرحيمُ يرأفُ به، ويَنْهاه عنْ هذا الهمِّ القاتلِ، ويُهَوِّنُ عليه الأمرَ.

ومنْ رحمتِه في دعوتِه ما فعلَه مع الشبابِّ الذي جاءَ يطلبُ الإذنَ بالزنا، فعنْ أبي أمامةَ – رضيَ اللهُ عنه – قالَ: ((إِنَّ فَتًى شَابًّا أَتَى النَّبِيَّ – صلى اللهُ عليه وسلم –، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ ائْذَنْ لِي بِالزِّنَا، فَأَقْبَلَ الْقَوْمُ عَلَيْهِ فَزَجَرُوهُ، قَالُوا: مَهْ مَهْ [كلمةُ زجرٍ وإنكارٍ بمعنى: اكفُفْ].

فَقَالَ – صلى اللهُ عليه وسلم –: ادْنُهْ، فَدَنَا مِنْهُ قَرِيبًا، قَالَ: فَجَلَسَ، قَالَ: أَتُحِبُّهُ لِأُمِّكَ؟ قَالَ: لَا وَاللَّهِ جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاءَكَ، قَالَ: وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِأُمَّهَاتِهِمْ.

قَالَ: أَفَتُحِبُّهُ لِابْنَتِكَ؟ قَالَ: لَا وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاءَكَ، قَالَ: وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِبَنَاتِهِمْ.

قَالَ: أَفَتُحِبُّهُ لِأُخْتِكَ؟ قَالَ: لَا وَاللَّهِ جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاءَكَ، قَالَ: وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِأَخَوَاتِهِمْ.

قَالَ: أَفَتُحِبُّهُ لِعَمَّتِكَ؟ قَالَ: لَا وَاللَّهِ جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاءَكَ، قَالَ: وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِعَمَّاتِهِمْ.

قَالَ: أَفَتُحِبُّهُ لِخَالَتِكَ؟ قَالَ: لَا وَاللَّهِ جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاءَكَ، قَالَ: وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِخَالَاتِهِمْ.

قَالَ: فَوَضَعَ يَدَهُ عَلَيْهِ وَقَالَ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ ذَنْبَهُ، وَطَهِّرْ قَلْبَهُ، وَحَصِّنْ فَرْجَهُ، فَلَمْ يَكُنْ بَعْدُ ذَلِكَ الْفَتَى يَلْتَفِتُ إِلَى شَيْءٍ))[١٨].

---

(١٧) رواه مسلم، (٣٠٢).

(١٨) رواه أحمد في مسنده، (٢١٧٠٨)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، (٣٠٧).

والملحوظُ منْ رحمةِ النبي – صلى اللهُ عليه وسلم – لأمتِه أنها مشوبةٌ بمحبةٍ، وممزوجةٌ بتقديرٍ واحترامٍ، وأنَّه – صلى اللهُ عليه وسلم – تركَ أحيانًا بعضَ العملِ الذي يرغبُه متى كانَ التوجيهُ القوليُّ غيرَ كافٍ في إحداثِ الرحمةِ وتحقيقِ الرفقِ الذي يريدُه – صلى اللهُ عليه وسلم – لأصحابِه رضيَ اللهُ عنهم.

إنَّ مراعاةَ ضعفِ الناسِ والرفقَ بهم، وتسهيلَ التطبيقِ عليهم، وعدمَ إلزامِهم بما يُلزِمُ المرءُ نفسَه به منْ فضائل وأعمالِ البرِّ، والتدرجَ معهم رويدًا رويدًا في صعودِ مراقي الكمالِ . مفتاحُ كسبِ القلوبِ، وبوابةُ الحفاظِ على فرحِ الناسِ بلزومِ أروقةِ الطاعةِ، والاستمرارِ في دروبِ الخيرِ ونهجِ الهدى.

فيا ذا الجلالِ وَالإكرامِ! اجْعَلْنَا بُصرَاءَ بدينِك، رُحَمَاءَ بخلقِك، حُكماءَ فِي الدعوةِ إلى شرعِك، يا أكرمَ الأكرمين.

وإلى لقاءِ الغدِ إنْ شاءَ اللهُ مع النبيِّ – صلى اللهُ عليه وسلم – في رمضانَ، والسلامُ عليكُمْ ورحمةُ اللهِ وبركاتُه.